أخلاقيات التعامل في الإسلام

نحن نعلم أن هناك أركانًا للإيمان وأركانًا للإسلام لا يقوم الدين بغيرها، ومع ذلك رأينا النبي ﷺ يقول: الدين المعاملة ـ فما مكانة المعاملة في الإسلام؟

الكل يعلم ـ كما تفضلت ـ بأن للإيمان أركاناً وللإسلام أركاناً، ولا يقوم الدين بغير هذه الأركان، فأركان الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقضاء خيره وشره، حلوه ومره. وأركان الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن كنت مستطيعاً. ولما كانت الأمور بمآلاتها وما تؤدي إليه، فإن كل هذه الأركان ما لم تظهر آثارها على سلوك الإنسان، وما لم تر على تصرفاته اليومية، فإنها تكون مواقف نظرية ليس لها أثر على الحياة، وسيكون صاحبها هو والذي لا يؤمن بها أو لا يمارسها سواء. أما متى نعرف أن هناك إيماناً وأن هناك إسلاماً لدى الفرد، فعندما تجد آثار هذا الإيمان، وآثار هذا الإسلام، قد صبغت علاقاته بإخوانه، وظهرت على جوارحه، وشكلت سلوكه، فعند ذلك فقط ترى الدين متجسداً في مواقف عملية، وسلوكيات واقعية، يراها الناس ويحسونها، بل ويعيشون مطمئنين في ظلها، وقد شرح لنا المصطفى ﷺ هذه الحقائق في كثير من توجيهاته لنا، فنراه يقول: «**لَا دِينَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ**»، ويقول: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»، ويقول: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**»، ويقول: «**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**»، ويتوج القرآن الكريم كل هذه التوجيهات بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[العنكبوت:٤٥].

ويوضح النبي ﷺ القول الكريم فيقول: «**مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا**» فالصلاة هي عماد الدين مهمتها أن تجعل سلوك

الشخص بعيداً عن السوء والفحشاء بعيداً عما تنكره الشريعة وتأباه القيم الصحيحة والأخلاق الكريمة، وكذلك تفعل بقية الأركان فهل بعد ذلك يستغرب أن يحصر النبي صلوات الله وسلامه عليه الدين كله في المعاملة؟ إنه لا غرابة في ذلك، فمن لم يتخلق بالأخلاق الكريمة، ويظهر على سلوكه عبق إيمانه وإسلامه، فليس من الإيمان والإسلام في شيء.

بعد أن تبين لنا المقصود من القول النبوي الكريم «الدين المعاملة» نتساءل عن الأساس الذي تقوم عليه التعاملات في الإسلام؟

هناك العديد من الأسس التي جاءت بها الشريعة لتقوم عليها التعاملات بين المسلمين، من هذه الأسس القوانين التي جاءت بها الشريعة لضبط التعامل بين الناس، حتى لا يأكل بعضهم حقوق البعض، لكن الإسلام لم يجعل هذه القوانين التي تقوم على حفظ الحقوق، وضبط التعامل بين الناس، لم يجعلها هي الأساس الأول، وإنما قبل ذلك اهتم بأن يضبطها بالأخلاقيات، ويصونها بالقيم التي يربى عليها المسلم، ويعبد الله تعالى بتطبيقها في حياته العملية، وتعاملاته مع الناس. ذلك أن الإسلام يريد للناس أن يحصلوا على حقوقهم قبل غيرهم بطريق الرضا، ومبادرة الآخرين إلى الوفاء بما عليهم قياماً بالواجبات التي ألقيت على عاتقهم، والتزاماً بالأخلاق والقيم التي تدفع المسلم إلى العطاء والبذل قبل أن يفكر في الأخذ والاستحواذ، وهم إذ يؤدون ما عليهم من واجبات، يحصل المتعاملون معهم على ما لهم من حقوق دون أن يتكبدوا مشقة أو يتكلفوا عناء. فالإسلام لا يبنى الحياة على الحقوق والسعي إلى الحصول عليها، وإنما يبنيها على الواجبات وحرص الناس على القيام بها، وهم إذ يحرصون على القيام بما عليهم من واجبات يحصل الآخرون تلقائياً على ما لهم من حقوق.

ما الفرق بين أن يحصل الناس على حقوقهم بالمطالبة بها والسعي إليها، وبين أن يحصلوا عليها بأداء الناس للواجبات التي عليهم؟

نوضح أولا أن كل حق لك هو واجب على غيرك، وكل واجب عليك هو حق لغيرك، فإذا أديت ما عليك من واجبات حصل الناس على حقوقهم قبلك، وإذا أدى الناس ما عليهم من واجبات حصلت على حقك قبلهم. بعد ذلك أوضح أن الفرق في الأثر والنتيجة بين الطريقتين للحصول على الحق ـ طريقة المغالبة والمطالبة والسعي، وطريقة أداء الناس ما عليهم من واجبات ـ فرق كبير جداً، ذلك أن الطريقة الأولى تزرع في النفوس الأثرة والأنانية والحرص، بينما الثانية تزرع في النفوس الإيثار والمودة والتراحم، ونتيجة الطريقة الأولى مجتمع مفكك، كل فرد فيه يقول: نفسي نفسي، ونتيجة الطريقة الثانية التي يدعو إليها الإسلام هي تماسك المجتمع، ووقوف الأفراد معاً كالبنيان المرصوص، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، كما هو تشبيه النبي صلوات الله وسلامه عليه للعلاقة بين المسلمين، وينعكس أثر ذلك على المجتمع في سيادة الأمن والاستقرار، ومن ثم تفرغ الناس للعمل والإنتاج، فتتوفر ظروف التقدم، وبناء الحضارة. فالأخلاق والقيم هي الأساس الذي تقوم عليه العلاقة بين الناس في ظل الإسلام.

والله ولى التوفيق